مجلة مداد الآداب

الجامعة العراقية
كلية الآداب
قسم التاريخ
1425هـ 2005م
Department of History

مسيحيو بيت المقدس في ظل الحكم العربي الإسلامي من الفتح وحتى عام ٢٣٢ هـ

أ.م.د. عثمان مشعان عبد
الجامعة العراقية - كلية الآداب

مستخلص

يتناول هذا البحث، جانباً مهماً من تاريخ بيت المقدس في العصر الوسيط، وخاصة تعامل المسلمين وأساليبهم مع مسيحيي المدينة المقدسة، والذي قام على أنهم أصحاب ديانة سماوية لهم حقوقهم في العيش بحرية وممارسة حياتهم الطبيعية وفق المبدأ القرآني (لا اكراه في الدين)، فضلاً عن حق المواطنة في ظل الحكم الإسلامي.

ثم سنحاول الاجابة على تساؤلات مهمة وهو: هل سارت سياسة الحكم في جميع العهود على هذا النمط والمنحى، ام انها اختلفت وفق المواقف والظروف، وما هو موقف مسيحيو بيت المقدس من الحكم في العصور الإسلامية.

قسم البحث إلى ثلاثة مباحث:

الأول: مسيحيو بيت المقدس قبيل الإسلام وعشية الفتح الإسلامي للمدينة، وركز المبحث الثاني على سياسة الحكم الأموي مع معهم وأشكال التعامل التي سادت وقتذاك، فيما تناول المبحث الثالث سياسة الحكم العباسي مع المسحيين في بيت المقدس.

واعتمد البحث على مجموعة من المصادر التاريخية منها كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت٢٧٩ هـ) وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣٦٠ هـ)، وكتاب تاريخ القدس للأزرقي، وغيرها.

متمنياً ان اوفق في تقديم وعرض ذلك كله، والله الموفق.

المقدمة

الحمد الله والصلات والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبة ومن والاه.

تعد مدينة بيت المقدس احدى اهم مدن العالم لاسيما بين الشرائع السماوية العالمية بشكل عام والشريعة الإسلامية بشكل خاص لما جاء ذكرها وتزكيتها بشكل صريح وواضح في عدد من الآيات الكريمة لذا فهي تحتل خصوصية في الفكر الإنساني فيما يتعلق في حرية الانسان وتطبيق العدل وعدم انكار الاخر مهما كان جنسه ومعتقده من هنا جاءت أهمية عنوان بحثنا الموسوم (مسيحيو بيت المقدس في ظل الحكم الاسلامي)، لنبين طبيعة وهوية هذه الفئة وكيفية ممارسة حياتها في ظل الحكم الإسلامي، أي حافظة على هويتها وكيانها ام انها طمست وظلمة، لها مشاركة في الإدارة والحياة العامة ام انها عزلت كونها تختلف مع الاخر في العقيدة.

جاءت الدراسة على عدة محاور ركز المحور الأول على القدس ومكانتها قبيل الإسلام عند الروم والفرس، وتناول المحور الثاني بيت المقدس في الفكر الإسلامي وتضمن المحور الثالث أساليب فتح بيت المقدس عند الفاتحين واستعرض المحور الرابع مشاركته في الإدارة.

واعتمدت هذه الدراسة على المصادر المهمة والمراجع الحديثة في استكمال مضامين المحاور والوصول الى نتائج التي نرجو ان تخدم الدراسة في حقلها التاريخي.

بيت المقدس قبل الإسلام

للقدس مكانة عالية لدى الدول والحكومات التي تعاقبت على حكم بلاد الشام وغالباً ما كانت جل قواهم واهتمامهم السياسي والديني في بيت المقدس بما يتناسب مع سياسة تلك الدولة أي بغض النظر عن مراعتها لأجل تلك البلاد، الا ان المهم في دراستنا هذه هو التركيز على أوضاع مسيحو بيت المقدس في ظل تلك الحكومات كالرومان والفرس.

يعد حكم الرومان بلاد الشام لقرون عدة وعلى الرغم من تحولهم من الديانة الوثنية الى المسيحية في عهد قسطنطين وانتشار المسيحية في اغلب أرجائها، الا ان الظلم لم يخفف عنهم، ;,وكان معظم عرب الشام على المذهب الطبيعة الواحدة لسيدنا المسيح وليس على رأى الاباطرة الروم المتبنين رأي الطبيعتين لسيدنا المسيح الطبيعة الاهية وأخرى بشرية لذلك لقي نصارى الشام. الكثير من الاضطهاد من قبل حكم الروم، لدرجة تعرض الرهبان الى النفي والتشتيت في مختلف البلدان وأغلقت الاديرة[1]، ومنعوا كذلك أهل الشام ومنهم مسيحيو بيت المقدس من عقد

اجتماعاتهم الدينية وأخذت كنائسهم، وأعطيت الى أصحاب المذهب الاخر[٢] ومما يذكر عن تعرض بعض ملوك العرب كملوك الغساسنة على يد أباطرة الروم هو اعتقال المنذر ملك الغساسنة عام (٥٨١م) ونفيه الى جزيرة صقلية وعزموا على أجبار عرب الغساسنة بالإكراه على[٣] التحول الى المذهب الارثوكسي الملكاني مذهب ملوك الروم القائل بالطبيعتين، الا ان هذا الامر دفع الغساسنة للقيام بثورة مما أضطر الملك هرقل للتحرك ومعالجة الموقف من خلال كسب ود عرب الشام بالتقرب اليهم ومحاولة أيجاد التوازن في سياسة الروم لكنه لم يتحقق لان أخبار الفتوحات الاسلامية التي منحت الناس واصحاب الاديان الحرية في اختيار المعتقد، [٤] لا سيما وان الحكم البيزنطي توجهاته تتقاطع وتختلف مع المذهب المتسامية (السورية) ومن جملة ما عاناه مسيحيو بيت المقدس أنه لا يسمح لهم ان يقيموا كنسية لأنفسهم ولا يسمح لهم ممارسة الشعائر الدينية علناً[٥]. كما ان الملكة هيلانة والدة قسطنطين قد زارة أيليا وبنت كنيسة القيامة سنة ٣٣٥م، ودمرت عند زيارتها البناء القائم عند قبة الصخرة وحولتها الى مكان لطرح القمامات[٦]، وعن سياسة التطرف والظلم لأهل القدس في ظل الحكم البيزنطي، ان قسطنطين فرض على اليهود ان يتنصروا فتنصر قسم منهم ومن لم يتنصر فأنه قتل او غادر البلاد [٧].

وعن موقف الفرس فقد أشارت الروايات التاريخية عند دخولهم بلاد الشام وتحديداً الى أيليا سنة ٦١٤م بقيادة مرزبة خزروية فأنهم قتلوا من سكانها تسعين الف مسيحي، وهدم الفرس كنيسة القيامة فضلاً عن تهديمهم وتدميرهم لمعظم الكنائس والأديرة واخذوا بطريكها أسيراً، وفي سنة ٦٢٩م تمكن هرقل من ان يجمع قواه وقيادته وحارب الفرس ودخل بيت المقدس.[٨].

مكانتها عند المسلمين

في خضم الاحداث أعلاه جاءت طلائع الدعوة الإسلامية وسياسة الفتح التي رسمها الخلفاء الراشدون جعلت لبلاد الشام خصوصية اقتبسوها من مقاصد الشريعة الاسلامية، وان القدس على وجه الخصوص تحظى بمكانة عظيمة عند المسلمين في مشارق الارض ومغربها، فهي تحتل منزلة ذات شأن في وجدانهم وتاريخهم كونها تمثل القبلة الاولى، وفيها ثالث الحرمين الشريفين ومنها مسرى الرسول وعرج به الى السماء.[٩]

كما نص القرآن الكريم على انها مباركة في سورة الاسراء ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [١٠] كما

حث الرسول (صل الله عليه وسلم) على زيارته كما في الحديث قائلاً ((لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الاقصى)) [١١]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد صلى سبعة عشر شهرا نحو بيت المقدس ثم توجه بعدها نحو الكعبة تكريما من الله تعالى لرغبة نبيه صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى "قد نرى تقلب وجهك في السماء"، [١٢] وروي عن مولى زياد قال: ((تسافر المرأة يومين الا معها زوجها اوذوا محرم، ولاصوم في يومين الفطر ولاءضحى ولا صلاة بعد صلاتين بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب ولاتشد الرحال الا الى ثلاث مساجد مسجد الحرام، والمسجد الاقصى والمسجدين، وكما سبق وذكرنا ان لبيت المقدس منزلة عظيمة، كان لزاما ان نبين فضائله التي شكلت لدى المسلمين وعيا وتجذرا كبيرا بقضية القدس، حتى يستحسنه المطلع عليه، قال يحيى بن سلام[١٣] في تفسير قوله تعالى ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [١٤] قال: هي بيت المقدس[١٥]، وقوله تعالى لبني اسرائيل: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾[١٦]، يعني بيت المقدس وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[١٧]، قال: البيت المقدس بعد وفاة الرسول في عام ١١هـــ، أمر الخليفة ابو بكر الجيوش الاسلامية بالتوجه لفتح العراق وبلاد الشام، ولكن الخليفة ابا بكر توفي قبل ان يشهد فتح المسلمين للقدس، وتم لهم ذلك في ايام الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٥هـــ، وتظهر أهمية القدس ومكانتها في الاسلام في أنها المدينة الوحيدة التي زارها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين المدن العديدة التي فتحت في عهده، وقد أتخذ فيها الخليفة عمر بن الخطاب جملة من الاجراءات الهامة منها

- كتب وثيقة تسنيم المدينة والتي عرفت بالعهدة العمرية.
- عين عبادة بن الصامت قاضيا ومعلما للمسلمين فيها.
- أمر ببناء المسجد الذي عرف بمسجد القدس.
- أما الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أهتم بمدينة القدس وسكنها المسلمين، وقد ظهر ذلك عندما مر بقرية سلوان على ضعفاء المدينة

وتجدر الاشارة أنه لم يطلق على المسجد الاقصى اسما منفصلا إلا في أواخر العصر الاموي، فتمت تسميته مسجد بيت المقدس، كما اطلق عليه الرحالة الايراني ناصر خسروا مسجد بيت المقدس، ويعد ابن فضل الله العمري اول من أستعمل لفظ الحرم القدسي الشريف ليضم قبة الصخرة المشرفة والمسجد الاقصى، والمنشآت الدينية الاخرى الكائنة في ساحاته. وتظهر أهمية القدس، ومكانتها في العهد الراشدي عام ٦٣٧م. بموافقة الخليفة عمر بن الخطاب على طلب بطريرك القدس، فدخلها وكتب لنصارى المدينة (العهدة العمرية) لتجسد فكرا انسانيا وحضاريا متقدما، فهي نموذج من العقود التي وثقها المسلمون مع اصحاب الديانات الا، وفي المدينة ارست العهدة العمرية قواعد التسامح واحترام العهود ؛ومع مجيء بني امية للحكم، نال بيت المقدس اهتماما خاصا لأسباب سياسية ودينية فقد شيد الأمويون في المدينة صروح عظيمة، ليؤكدوا حرمة الحرم، وليكسبوا الاحترام وشهره بين المسلمين، حيث أقدم الخليفة عبد الملك بن مروان على بناء قبة الصخرة المشرفة فيها بين (٦٩_٧٢هـ)، وقد ساهم بعض اهل القدس كرجاء بين حيوة الكندي [١٨]، وزيد بن سلام [١٩] في بناه القبه التي تمتاز بتصميمها الفريد كأقدم اثر اسلامي لا زال قائما [٢٠]. وقد حظيت المدينة المقدسة بإقامة العديد من الصحابة الكرام، وحرصوا هم ان يوصوا بان يدفنوا في ثراها، ومنهم: عباده بن الصامت، ابو ريحانة الازدي، فيروز الديلمي، شداد بن اوس، مسعود الانصاري، سلام بن قيس الحضري، كما مر بها عدد كبير من كبار الصحابة منهم عمر ابن الخطاب، ابو عبيده بن الجراح، عمرو ابن العاص، خالد ابن الوليد، معاوية بن ابي سفيان عبد الرحمن بن عوف، بلال بن ابي رباح، وام المؤمنين صفيه، وهؤلاء جميعاً حرصوا على نيل مثوبة الصلات في الاقصى والسير على ارضه الطيبة وأيضاً حظية بإقامة الكثير من العباد والزهاد والتابعين مثل عمر بن عبد العزيز، مالك بن دينار [٢١]،

المفسر: خسروا بن حارث بن عيسى بن حسين بن محمد العلوي الاصبهاني، ناصر الدين، المعروف بحجت، ومن مشايخه: ابو الحسن الخرقاني وغيره. كان الخواجة ناصر خسروا جامعًا لجميع العلوم الظاهرية والباطنية وصاحب اليد الباسطة في الفقه والحديث ولمراتب الحكمية والعرفانية، وكان له ايضًا حظ وافر من العلوم وعليه ان مكانة بيت المقدس ومكانة القدس لدى المسلمين، ليست مرتبطة بالبنيان التي تحويه المدينة، بل هي ارتباطات

روحية منذ الازل في مختلف الديانات، التي تثبت أواصر الاعتقاد والعمل وتجعلهما خطا متوازيين يحققان مبتغا النص، وزادت من قيمة هذا التشبث نصوص الوحي، وشكلت وعيا نضاليا ينافح ويكابد عن القدس وكل ما من شانه ان يوثر سلبا على قضية الهوية والانتماء[٢٢]

أساليب فتح بيت المقدس

هذه النصوص الشرعية والمبادئ التي سار عليها الفاتحين اعطت لبيت المقدس واهله حرمة لذا نجد ان اساليب الفتح التي تعاملوا بها مع هذه المدينة تعكس حرص وحكمت القادة، اذ بالرغم من الانتصارات التي تحققت على الروم في بلاد الشام وخاصة بعد معركة اليرموك ومنحتهم مدن بلاد الشام حمص والاردن وغيرها التي مكنت المسلمين من حسم ما تبقى منها الا ان قادة المسلمين آنذاك وعلى راسهم ابو عبيدة عامر بن الجراح سعوا الى فتح المدينة دون قتال، وتجنب سياسة اسلوب الاشتباك والسيف مع القوة المحصنة في المدينة التي يقودها القائد الروماني ارطبول – لذا اعتمدوا اسلوب فرض الحصار سعيا لدفع اهل المدينة الى طلب الصلح وصبر المسلمون على مواصلة الحصار ومراسلتهم من قبل القادة لطلب الصلح وفق المبادئ الثلاث الاسلام او الجزية او القتال، الا انهم كانوا يرفضون الصلح املا بوصول الامدادت من الروم[٢٣]، او ظنهم ان المسلمون لا يحتملون برد الشام مما سيضطرهم للانسحاب لكن لم يتحقق من الامرين شيء وصبر المسلمون على المواصلة في تطبيق الحصار لاسيما وان مسيحيو بيت المقدس قد كان لهم موقف ايجابي اثناء الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام وهو موقف الحياد اتجاه القتال الذي وقع بين المسلمون و الروم،[٢٤] ثم ان القائد الروماني حينما يأس من نجدة الرومان هرب الى مصر تاركاً الامر بيد احد البطاركة في بيت المقدس وهو البطريك صفر يانوس الذي طلب الصلح بشرط ان يحضر الخليفة بنفسة لتسلم البيت المقدس واعطاء الامان لما عرف عن الخليفة من الايفاء بالعهود والعدالة بين الناس وهنا برزت إنسانية المسلم الذي حمل مسؤولية الامانة العالمية وامانة الدعوة الى الناس كافة، احترم فيها انسانية الانسان مهما كان جنسه ومعتقده لذا طلب قادة الشام وبإيثار على انفسهم دون التمسك في الامور الدنيوية المتمثلة بكسب النصر وفتح المدينة باسمه دون غيره من أجل المجد والفخر وانما طلبوا من الخليفة القدوم الى الشام لتحقيق الهدف وحقن الدماء فاستجاب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ان استشاره الصحابة في الذهاب حبا بالمدينة بالرغم من معارضة بعض الصحابة لذهابه الا

أنه اختار الذهاب رغم صعوبة اعباء السفر الى الشام[٢٥]، ومن مصادفات ما رافق هذا الصلح ان الخليفة عمر ابن الخطاب (رض) استقبل وفد مسيحيو بيت المقدس في هذا الصلح بحفاوة ومما رافق جيثيات هذا الصلح والتي تظهر نوايا الخليفة الصادق وتطبيق الأقوال عمليا حدث ان مزارعا تقدم للخليفة بشكوى عن ان جند المسلمين مرو بمزرعته وأكلوا ودمروا الزرع فأمر الخليفة بالتحقق من صحة الامر ثم أمر بتعويض المزارع عن قيمة زرعه [٢٦] وان اهم ما حددت حقوق الذميين وحفظتها وحددت العلاقة بين المسلمين ومسيحيو بيت المقدس.

هي المعاهدات التي ذكرت المصادر التاريخية بنودها بوضح ومنهم الطبري (ت ٣١٠هـ)[٢٧] عن معاهدة أهل أيليا ما نصها ((بسم الله الرحمن الرحيم)) هذا ما اعطا عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايليا من الامان لأنفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسيقمها وبريئها وسائر ملتها، وان لا تسكن كنائسهم وصلبانهم ولا تهدم ولا تنقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايليا معهم احد من اليهود وعلى اهل ايليا ان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن وعليهم ان ياخرجوا منها الروم والصوص...)) وبالتالي فان اهم ما تضمنت المعاهدة هو حماية الانفس وحفض الاموال وحرية الدين وهذه الامور من اهم ما يطلبه المغلوب من الغالب في الحسابات العسكرية والسياسية فضلا عن حرية الاختيار لمكان العيش فيما بعد سواء في في بيت المقدس أو الذهاب الى البيزنطينين وله الامان في ذلك،

ومع ان هذه المعاهدة اخذت خصوصيتها على انها عقدت مع مسيحيو وبتوقيع الخليفة ولبيت المقدس الا ان معاهدة مدن الشام الاخرى فان معاهدات الصلح قد حملت نفس المضامين منها الضمانات لأهل المدن على سبيل المثال معاهدة دمشق سنة ١٤هـ عقدها خالد بن الوليد جاء فيها ((...امان على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذاك عهد الله)) [٢٨]، وفي صلح بعلبك جاء فيها، ، " امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرجائها "[٢٩] وكذلك الحال في صلح الرها سنة ١٨هـ، " أمنتهم على دما ئهم واموالهم وذراريهم ونسائم ومدينتهم وصوامعهم "[٣٠]

ثم لم نجد في المصادر التاريخية ما يشر الى ان الفاتحين اعتادوا سياسة التخريب والتدمير للمدن التي يدخلونها كما فعل الفرس عند دخولهم بلاد الشام سنة ٦١٤م، لان المسلمين

اصحاب دين يهدف الى عز الانسان وتكريمه من خلال هدايته واقناعه بالفكر الحضاري الذي جاء به هذا الدين كما ان المصادر التاريخية اشارت الى الجهود التي ادت الى بناء المدن القديمة واعمارها[٣١] –على سبيل المثال –مدينة عكا – التي فتحها معاوية بن ابن ابي سفيان سنه ١٩هـ ورمم ما هدم منها واعادوا بناؤه / كما ضربت مرت اخرى على يد الروم عند مهاجمتهم اياها اثر. مقتل الخليفة عثمان بن عفان ((٣٢-٣٥هـ)) مستقلين انشغال المسلمين بهذه الفتنة فأعاد بنائها الخليفة [٣٢] الاموي هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ)[٣٣].

والحال كذلك مع مدينة صور فقد رممها معاوية بن ابي سفيان بعد فتحها على يده، ثم جدد بناها الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ)، وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) اشتهرت بقصورها ودور صناعتها الفخمة [٣٤]، هذه النماذج فضلا عن المدن الاخرى مثل بيروت ومدينة جبلة التي اصبحت مدينة عامرة في العصور الاسلامية بعد ان كانت حصنا للروم [٣٥]، ومدينة انطرطوس التي بنا ها معاوية بن ابي سفيان بعد ان كان مكانا خربا،[٣٦] هذه الاعمال تدل دلالة واضحة على حضارت الدين وفكره البناء للانسان والانسانية وتحقيق التعايش بين الجميع.

ثالثاً: ((مسيحيوا بيت المقدس في ظل الحكم الاموي))

عاش مسيحيو بيت المقدس في ظل الحكم الاموي وفق المبادئ والاساسيات التي وصفها وسار عليها الخلفاء الراشدين وان كان هناك تفاوت في المواقف بين خليفة وأخر الا ان الهوية والمكانة لمسيحيوا بيت المقدس قائمة ففي زمن معاوية بن ابي سفيان وجد المسيحيين حريتهم الدينية والاجتماعية والادارية اذ سمح لهم ببناء الكنائس الجديدة وكذلك اعادة اعمارما خرب من الكنائس القديمة [٣٧]، مما يعكس سماحة ومرونة معاوية بن ابي سفيان اثناء خلافته ((٤١-٦١هـ)) انه حينما عزم على تهديم كنيسة يوحنا من المسجد في دمشق لمضايقتها له استئذن النصارئ فأبوا عندها أمتنع معاوية،[٣٨] عن ذلك كما ان الاخطل الشاعر المسيحي كان له مكانته في المشهد لاموي ويدخل الى مجلس معاوية والصليب في عنقه،[٣٩] وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) عاد عبد الملك المحاولة طالبا هدم كنسبة يوحنا لتوسعت المسجد وبذل لهم مالا ومع ذلك ابو تسليمها فتركها لهم كما ان عبد الملك بن مروان كان لم يفرق بين

الموظفين في دواوين الدولة بين مسلم ومسيحي وانه كان يثق بالنصارى واستعملهم في وظائف المسجد الاقصى لدرجة انهم كانوا يتوارثونها أبا عن جد(٤٠)

الا ان موقف الخليفة الوليد بن عبد الملك نجده مختلف عمن سبقه مع مسيحيو بيت المقدس وكان مما يواخذ عليه انه اخذ منهم كنيسة يوحنا على الرغم من رفضهم لطلبه وبعض الباحثين، يعلل ان السبب يرجع الى عدم تأيدهم لخطة الخليفة في مهاجمت القسطنطينية وفتحها ومع هذا الموقف الذي ينم عن مقاطع وقسوة، الا انها لم ترد اشارة الى تهجير وقتل وتهديم للمنازل وبتالي الهوية المسيحية لا تزال باقية كما انه بذل لهم مالا ثمينا لها، (٤١) ويروى ان رجل دين نصراني (ت٩٠) افتى بانه يحل للنصارى ان يعلموا اولاد المسلمين.(٤٢)

ثم ان موقف الوليد بن عبد الملك لم يستمر فقد عالجه الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي استرضى النصارى حينما عزم على هدم ما بناه الوليد بن عبدالملك ويرده لهم، لكن أهل دمشق طلبوا من النصارى أن يتركوا هذا المطلب ولهم جميع كنائس الغوطة عوضا عنها بعد ان كانت بيد المسلمين فوافقوا ورضوا بذلك، وهذا يدل على مكانة اهل الذمة لدى الخلفاء المسلمون وحريتهم في المحافظة على حقوقهم وهويتهم ومقدساتهم

رابعاً: العصر العباسي

مشاركة النصارى في الادارة

ان الخلافة الاموية، وهي بصدد تثبيب اقدامها ورسم سياستها المستقلة وبسبب عزمها على تجديد واقعها الاداري، ولا سيما، بعد اتساع مساحة اراضي الخلافة الاسلامية وكثرة معارضيها وجدت ان المصلحة تقتضي الاستفادة من رعاية الدولة الاسلامية ومنهم اهل الذمة سواء في الامور الادارية والسياسية. ويذكر ابن ابي اصيبعة(٤٣) (ت: ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ان الطبيب النصراني ابن اثال كان اثيرا عند معاوية وحسب روايته فان معاوية كان ((كثير الافتقاد له، والاعتقاد والمحادثة معه ليل نهارا)). كذألك كان الطبيب ابا الحكم النصراني من المقربين لمعاوية بسبب خبرته في مهنة الطب(٤٤) وعمل في تحضير الادوية المركبة (٤٥). فضلا عن ذلك فقد كان سرجون بن منصور، وابنة منصور على ديوان الخاتم في خلافة معاوية، وكانا بمثابة وزير المال لدية، بسبب اتقانهما لغة الروم، حسب روايتي الجهشياري (ت:٣٣١هـ/٩٤٢م)(٤٦) والمقريزي، (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م) حتى ان المؤرخ الفقيه ابن خياط (ت:٢٤٠هـ/٨٥٤م)،

وصف هذه المكانة بقولة: ((كان الامر كله الى سرجون بن منصور[٤٧]وتبع يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٣٨م) اباه معاوية في تقريب سرجون واكثر من استشارته خصوصا في ولاية عبيد الله بن زياد على العراق، [٤٨] ومن جانب اخر فقد سمح الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٤٨-٧٠٥م) (لا هل الذمة المشاركة في مجالسه، وقام بتولية الدمشقي على بيت المال [٤٩]؛ فضلا عن أستكتاب كل من شمعل وسرجون بن منصور كما أسلفنا على ديوان المال وديوان الجند في بلاد الشام [٥٠]، وحسب الروايات التاريخية فأن الخليفة هشام بن عبد الملك شاور نسطاس وهو المعروف بأبي الزبير النصراني في أمر العهد لابنه من بعده، [٥١]، وكذلك أستخدم الخليفة هشام بن عبد الملك منصور بن سرجون لخبرته اللغوية في استكمال تعريب ديوان الشام[٥٢].

أن تقريب الخلافة الاموية لأهل الذمة بشكل عام والنصارى على وجه الخصوص يعود لاستثمار الخبرات في النهوض بمؤسسات الدولة وهي لاتزال في طور التأسيس فضلا عن أعطاء تلك العناصر هويتهم ومكانتهم كجزء من أبناء هذه الدولة وعليهم المشاركة في خدمتها بإخلاص كشرط في التعامل معهم والانخراط في مؤسساتها، لذا نجد المتابعة والحذر من بعض المواقف التي تصدر من البعض والتي لا تتلائم مع الأهداف المرسومة لخدمة الدولة العربية الاسلامية، من هذا التوجس والحذر على سبيل المثال موقف الخليفة عبد الملك بن مروان من الرسالة التي بعث بها ملك الروم الى الخليفة ويحذره من سفيره الذي بعثه الية وحاول ان يوغر صدر الخليفة علية ليقتله، الا ان الخليفة كشف خبث الملك وقال للشعبي وهو المقصود في الرسالة أن ملك الروم "حسدني عليك، فأراد ان يغريني، ويحملني على قتلك"[٥٣]، كذلك نجده حازما مع سرجون بن منصور حينما رأى منه تكاسلا، أبعده وأمر سليمان بن سعد الخشني ان يعرب دواوين الشام والموقف ذاته نجده من الخليفة معاوية بن أبي سفيان في موقفه ضد الشاعر النصراني المقرب منه، لأنه أساء القول في فضل الأنصار في الدعوة الاسلامية[٥٤]. أما موقف الخليفة عمر فكانت دون يد الذمي هي العليا وان الا تكون مفاصل الدولة المهمة بأيديهم، اذ كتب لعماله "أن أسلم الذمي فهو منا ونحن منه وأن أبى فلا تستعين به"[٥٥]

مسيحيو بيت المقدس في العصر العباسي

مثل بداية الحكم العباسي حقبة صعبة بالنسبة لأهل الذمة، اذا ما قيست بالمراحل السابقة، الا انه في الوقت نفسه لم تبقى الظروف على وتيرة واحدة، اذ شهد هذا العصر تقلبات في مواقف الخلفاء أتجاه المسيحين.(٥٦)

فقد امر الخليفة ابو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨ بعدم السماح للمسيحين ببناء الكنائس وا ظهار الصلبان وروي ان الخليفة المهدي ١٥٨-١٦٨ امر بان يسكن المسيحيون في حي واحد من احياء القدس وان تأخذ منهم الجزية.(٥٧)

الا ان عهد الخليفة هارون الرشيد مثل عهد التحسن في حسن المعاملة اذ سمح لهم يزيدهم الكنائس وبناء كنيسة العذراء واخذ على نفسه الخليفة الحماية الزائرين لبيت المقدس من المسيحين لاسيما بعد تطور العلاقة بين الخليفة هارون والملك شاركان وتبادل الوفود بينهما، شاركما قابل هذا الموقف الحسنى وكان يرسل الهدايا والاموال الى فقراء المسلمين كل عام، كما ان الطبيب الخاص للخليفة هارون الرشيد مسيحيا (٥٨).

الا ان افضل عهد عاشه المسيحين في ظل الحكم العباسي هو حكم الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) لاسيما وأن المأمون كان مولعا بالعلم والادب والترجمة ونقل تراث الحضارات القديمة الى اللغة العربية، والتي أخذ المسيحيين فيها دورا مهما في أنشاء المدارس والمؤسسات الخاصة في هذا الجانب(٥٩)

وبالتالي فأن مسيحيو بيت المقدس عاشوا حياة لا تقل عن غيرهم من الطوائف والقوميات الاخرى، وأنهم أخذوا دورهم ومكانتهم في بيت المقدس، بل لهم هويتهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وأنهم عاشوا أواخر أواخر الحكم العباسي على تفاهم تام مع المسلمين وكانوا يذهبون ويعودون للحج باطمئنان، (٦٠) والحال يتضح أكثر أذا ما قيست احوالهم بالأحوال التي مروا بها بالعهد البيزنطي والساساني.

الخاتمة

- بعد تتبع النصوص ودراستها توصلت الدراسة الى نتائج عدة منها تبين ان مكانة بيت المقدس قد احتلت أهمية عالمية لدى جميع الأمم السالفة.
- اتضح من خلال الدراسة ان بيت المقدس تمثل مركز الإدارة للدول التي تعاقبت على حكم بلاد الشام.
- اخذت بيت المقدس أهميتها وقوتها مما جاء عنها في الكتب المقدسة على مختلف العصور والأزمان.
- نالت بيت المقدس قدسية كبيرة لدى المسلمين ولا سيما الفاتحين نجدة واضح من خلال المشاركة والاستقرار لعدد من الصحابة في بلاد الشام.
- حافظة الشريعة الإسلامية على مكانة مسيحيو بيت المقدس وهويتهم من خلال منحهم الحرية والأمان لنفسهم في ممارسة شعائرهم الدينية بأمان.
- اتضح الدور الفعال لمسيحيوا بيت المقدس في إدارة الدولة على مختلف مفاصلها القضاء والكتاب والدواوين والطب والادب.
- تبين ان لهم حياتهم وكيانهم من عصر الرسالة وحتى العصر العباسي وان كان هناك بعض التفاوت بين عصر واخر.

هوامش البحث ومصادره:

(١) عباس، أحسان، تاريخ بلاد الشام، عمان، مطبعة الجامعة ١٩٩٠، ص١٥٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ألعدوي، أبراهيم، الامبرطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، ط٢، القاهرة، مكتبة الانجلو، ١٩٥٨، ص٦٣.

(٤) البلاذري، احمد بن بحبى بن جابر(٢٧٩)، فتوح البلدان، بيروت مكتبة الهلال، ١٩٨٨، ص١٤٣؛ الحنبلي، عبد الحي بن احمد (١٠٨٩)، شذرات الذهبفي أخبار من ذهب، تح، محمود ألارناؤط، دمشق دار بن كثير، ١٩٨٦، ج١، ص١٦٣.

(٥) غماش، الشام في صدر الإسلام، ص٧٠.

(٦) القشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ه)، صبح ألاعشى في صناعة الانشاء، بيروت، بيروت، دار الكتاب العلمية، بلا، ج٤، ص١٠٥.عارف بن عارف، تاريخ القدس المقدس، ص٣٨، القلشندي، الاعش، ج٤،

(٧) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٤٣

(٨) ابن الاثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تح أبي الفداء عبدالله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧،، ج١، ص٣٣٨؛الحنبلي، مجير الدين، ألانس الجليل بتاريخ القدس الخليل، النجف، المكتبة الحيدرية، ١٩٩٦، ص٢٤٧.

(٩) البخاري، صحيح البخاري، رقم ٣٩٩، ج١٠، ص٨٨.

(١٠) الاسراء، آية ١.

(١١) البخاري، صحيح البخاري، رقم ٣٩٩، ج، ١، ص٨٨.

(١٢) البقرة، الابة، ٤٤.

(١٣) اقال ابو العرب: ويحيى بن سلام، قدم افريقيا، وكان ثقه ثبتا وكان له ادراك، لقي غير واحد من التابعين، واكثر من لقي الرجال والحمل عنهم، وله مصنفات كثيرة في فنون العلم، وكان من الحفاظ.. توفي سنة ٢٠٠هـ. ينظر(محمد بن احمد المغربي الافريقي المغربي، محمد بن أحمد، طبقات علماء أفريقية، دار الكتب اللبناني، بيروت، بلا، ص١٧.

(١٤) الانبياء، الاية، ٧١.

(١٥) بن سلام، يحيى بن ابي ثعلبة، تفسير يحيى بن سلام، بيوت، ٢٠٠٤، ج١، ص٣٢٥.

(١٦) طه، الاية، ٨٨.

(١٧) المؤمنون، الاية، ٥٠

(١٨) رجاء بن حيوه كان ينزل الاردن، وكان ثقة عالما فاضلا كثير العلم وقيل ان الخليفة هشام بن عبد الملك قال من سيد اهل فلسطين قالوا رجاء بن حيوة توفي سنة ١١٢هـ، الشيرازي، ابراهيم بن علي، طبقات الفقهاء، تحقيق، احسان عباس،دار الرائد العربي، ط٠١، بيروت، ١٩٧٠م، ص٧٥.

(١٩) زيد بن سلام هو معماري خبير من اهل القدس كان احد معماريين عظيمين اسند اليهما عبد الملك بن مروان امر بناء مسجد قبة الصخرة، ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق: على شيري دار احياء التراث، بيروت، ١٩٨٨م، ج٨، ص ٣٠٩.

(٢٠) شهاب الدين ابو العباس احمد بن القاضي خرجت له مشيخة كثيرة حدث بها ورويت عنه عمل للشيخ تقي الدين ابن تيميه ترجمه انيقة مرضية في كتابة مسالك الابصار في ممالك الامصار فمنه قوله في الشيخ تقي الدين هو نادرة العصر، توفي في القاهرة سنة ٧٤٩هـ. ينظر ابن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر، تحقيق: زهير الشاويش، المكتبة الاسلامية، ط٠١، بيروت، ١٩٧٢م، ص٨١.

(٢١) السايح، عبد الحميد، مكانة القدس في الاسلام، منشورات لجنة القدس، ط٢، المغرب، ١٩٨٥، ص٧.

(٢٢) وزارة الاعلام، مقال: من يعيد للقدس زمنها الاول، مجلة العربي، العدد ٦٠٦، الكويت، ٢٠٠٩، ص٥٥.

(٢٣) الطبري، محمد بن جرير(٣١٠)، تاريخ الرسل والملوكتح، أبو الفضل ابراهيم، ط٢، بيروت، دار التراث، ١٩٦٧، ج٣، ص٦٠٩؛الحنبلي، ألانس الجليل، ص٢٤٧.

(٢٤) الحنبلي، الانس الجليل، ص٢٤٩.

(٢٥) أبن الاثير، الكامل، ج٢، ص٣٥٠؛ الحنبلي؛ الانس الجليل، ص٢٥١.

(٢٦) الحنبلي، الانس الجليل، ص٢٥٢.

(٢٧) الحنبلي، الانس الجليل، ص٢٥٢؛ الكاتب، عبدالحميد، القدس، القاهرة دار الشروق، بلا، ص٤٩.

(٢٨) البلاذري، فتوح البلدان، ١٥٤؛ الطبري، الرسل والملوك، ج٣، ص٤٣٦؛ ابن عساكر، القاسم علي بن الحسن، تح، صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٤، ج٣، ص٦٠٩.

(٢٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٤.

(٣٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٤.

(٣١) لابيدس، ابرام، تاريخ المجتمعات الاسلامية، تر، فاضل جتكر، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي، بلا، ص١١٢.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله (٦٢٦)، معجم البلدان، بيروت دار صادر، ١٩٧٧م، ج٤، ص١٨٤.

(٣٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٤.

(٣٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٠٥.

(٣٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٧٠.

(٣٧) تريتون، أهل الذمة في الاسلام، ص٤١؛مراجدة، تمارى جورج، سيكولوجية بعض المسيحين في بيت لحم، فلسطين، جامعة بير زيت، ٢٠١٢، ص٢٩.

(٣٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٥.

(٣٩) مراجدة، سيكولوجية بعض المسيحين، ص١٢٩.

(٤٠) عارف، باشا عارف، تاريخ القدس، ص٥٢؛ مكسي، ميخائيل، القدس عبر التاريخ، القاهرة، المعهد العالي، ١٩٧٢، ص٥٣.

(٤١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٩.

(٤٢) أمين أحمد، فجر الاسلام، ط١٠، بيروت، ١٩٦٩، ص١٣١.

(٤٣) بن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ضبطه، محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ص١٥٣.

(٤٤) بن ابي صيبعة، عيون الانباء، ص١٥٧.

(٤٥) الجهشياري، ابو عبدالله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تح، مصطفى السقا واخرون، القاهرة، ١٩٣٨، ٣٢.

(٤٦) المقريزي، احمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، القاهرة مطبعة بولاق، بلا، ج١، ص٩٨.

(٤٧) ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، تح، اكرم ضياء العمري، النجف، المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٧، ص١٥.

(٤٨) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٣١.

(٤٩) أرنولد، توماس، الدعوة الى الاسلام، تر حسن ابراهيم حسن، ط٣، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٥٣.

(٥٠) البلاذري، احمد بن يحيى، انساب الاشراف، تح، سهيل زكار، بيروت دار الفكر، ١٩٩٦، ج٨، ص٢٩٠.

(٥١) ابن خياط، تاريخ، ص٣٩٣.

(٥٢) شمس الدين الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الافراح، تح عبد الكريم ابو شوريب، باريس، دار بيبلون، ٢٠٠٧، ص٥٥.

(٥٣) الفراء، ابو علي الحسين بن عمر، رسل الملوك ومن يصلح للسفارة، تح، صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٤٧، ج١، ص٤٦

(٥٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٤٠،

(٥٥) أبن الاخوة، محمد بن محمد بن أحمد، معالم الغربة في أحكام الحسبة، صح، روبن ليون، كيمبرج، دار الفنون، ١٩٣٧، ص٣٩.

(٥٦) مراجدة، سيكولوجية بعض المسيحين، ص٥٥.

(٥٧) مراجدة، سيكولوجية بعض المسيحين، ص٣١.

(٥٨) عارف، تاريخ القدس، ص٥٥.

(٥٩) عارف، تاريخ القدس، ص٥٦.

(٦٠) المصدر نفسه.